الفلسفة التحليلية

بين مأزق لغة الكون وأفق لغة الإنسان

العياشي ادراوي

كلية الآداب. تطوان

1-تمهيد:

غير خاف على نظر الباحث المهتم بالشأن اللغوي، المواكب لتطور الفكر الفلسفي مدى عناية هذا الفكر بقضايا اللغة والإشكالات الموصولة بها، لدرجة يمكن معها تنزيل اللغة – بمعناها العام – منزلة المركز في دائرة الاهتمام الفلسفي الحديث. بل إنه ليمكن القول إن مكانة اللغة من الجهد الفلسفي المبذول اليوم يكاد يعادل مرتبة مبحثَيْ الوجود والميتافيزيقيا في الفلسفة الكلاسيكية، لحد غدت معه مقاربة المعضلات الداخلة في نطاق الاستقصاء الفلسفي الحديث غير منفكة – بل غير ممكنة – عن الأخذ في الاعتبار البعد اللغوي؛ بما هو بعد جوهري ضاغط على الفكر والنظر، مؤثر في عالم الأفكار وواقع الناس.

من هنا هذا الانعطاف اللغوي في سيرورة الأعمال الفلسفية الآخذة في الانتشار والتداول المتواصلين تحت عناوين متعددة، واستنادا إلى خلفيات وتوجهات محددة من قبيل: الفينومينولوجيا والتأويلية والتداوليات والسميائيات، مضافا إلى هذا فلسفة التواصل وفلسفة الذهن وفلسفة لغة الدين.

والملاحظ أن مدار الأمر في كل المنازع الفلسفية المذكورة إنما هو اللغة، على الرغم من التباينات القائمة بينها، وعلى الرغم من تفرد كل منها بمنطقها الخصوصي. إنها (اللغة) المنطلق الأساس في التحليل وأداته التي لا يتحقق إلا بها. وعلى هذا الأساس فالتعاطي مع اللغة من زاوية فلسفية يتيح إمكانيات متفردة لفهم أعمق "للنفس والنص والواقع" بما هي مستويات للوجود الإنساني العام وبما هو "وجود ساكن في اللغة" على حد تعبير هايدجر[1].

حسبنا في هذا البحث المقتضب أن نلقي الضوء على واحد من التيارات الفلسفية الغربية الحديثة الذي لم يعرف بشيء مثلما عُرِفَ باهتمامه المفرط باللغة وقضاياها، ورده إشكالات الفلسفة إلى الإشكالات اللغوية على سبيل "انتهاج التحليل اللغوي" مسلكا لتحليل الواقع وفهمه.

2–في مفهوم الفلسفة التحليلية:

يقصد بالتحليل (Analyse) تلك العملية القائمة على التقسيم العقلي أو الفعلي لـــ"كل ما" إلى عناصره المركب منها ثم إعادة تكوين ذلكم الكل من خلال أجزائه[2]. وضمن هذا الأفق التصوري العام كان للفلاسفة – على نحو إجمالي – مقصدان: الأول تشييد أنساق محددة (ميتافيزيقية، منطقية، أخلاقية)، والثاني توضيح أفكار على قدر من الأهمية – بحسب قناعات كل فيلسوف – ذات صلة بالمجتمع أو اللغة أو القيم أو غيرها. وتبعا لهذا التصنيف يبدو أن المقصد الأول تركيبي (بنائي= Structurelle) فيما الثاني تحليلي (Analytique). وإن كان ثمة من يتصور أنه "لا يمكن التمييز بين المقصديْن على نحو حاسم لأن ما هو تركيب (بناء) من وجهة نظر معينة هو تحليل من وجهة نظر أخرى"[3]. ليترتب على هذا أن كل "فعل فلسفي" – كائنا ما كان– هو فعل تحليلي – تركيبي بصيغة من الصيغ، وعلى نحو من الأنحاء. وتاريخ الفلسفة مفعم بالشواهد الدالة على هذا البعد، حافل بالنماذج الممثلة لهذا المترع.

بيْد أن ما يعنينا ها هنا ليس هذا المعنى الفضفاض لمفهوم التحليل" في الفلسفة العامة، وإنما المقصود المحدد من الفلسفة التحليلية؛ ما هي؟ وما المبادئ التي تنبني عليها؟ وما خصائصها المميزة لها؟ ثم ما الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها؟

تعد الفلسفة التحليلية (Analytic philosophy) اتجاها فلسفيا معاصرا أطلق ليوضح الأبحاث المنتشرة في البلدان الأنجلوساكسونية[4]. وينظر عادة إلى هذا النمط من الفلسفة على أنه ثورة فلسفية جاءت تطويرا للأفكار السائدة عند "حلقة فيينا" والوضعية المنطقية، وردا عمليا على "المثالية" التي برزتْ إلى العلن مع بعض الأدباء من أمثال "صمويل كولردج" و"كاريل" فضلا عن "برادلي" و"بوزكويت"؛ اللذَيْن يعدان الصوت المختلف داخل فضاء الفلسفة الإنجليزية التي تصنف معقلاً للفكر التجريبي والعقلانية البراغماتية[5].

ضمن هذا الجو الفكري اقترن مصطلح الفلسفة التحليلية بفلاسفة محددين هم: "مور" و"راسل" و"فتجنشتاين" المتأخر، بالإضافة إلى الوضعيين المناطقة وبعض الفلاسفة الإنجليز المتأخرين. ولقد انصبت محاولات فلاسفة التحليل من أمثال "برتراند راسل" وفلاسفة "جماعة فيينا" على إيجاد مناهج علمية في الفلسفة، متخذين من التحليل المنطقي للغة أساسا لهذا الغرض[6]. ولعل مما ساعد هذا الاتجاه تلكم الإنجازات التي أحرزها المنطق في مجال الرياضيات تحديدا.

إن اتباع طريقة التحليل المنطقي للغة إذن، عد بمثابة المنهج العلمي الجديد في الفلسفة من حيث كونه منهجا فرض كفايته في القدرة على التمييز بين مفاهيم وقضايا الميتافيزيقا من جانب، وفي إيجاد ضوابط علمية صارمة تشمل الاستدلال والاستقراء، في مقام أول، من جانب آخر[7].

ويمكن التمييز داخل الفلسفة التحليلية بين جملة من الاتجاهات الفكرية، أبرزها أتباع "كارناب" (R.Carnap 1891-1970) الذين جعلوا آخر الأفكار التي انتهى إليها أستاذهم "منطلقا لوضع تعريف دقيق للمفاهيم الأساسية للعلوم. وذلك في إطار لغة اصطلاحية صرفة"[8]، ثم مدرسة "مور" التي تجعل اللغة العادية أساسا لأبحاثها. فضلا عن أتباع فتجنشتاين (L.wittgenstein.1989-1951) الموسومين اتفاقا بـــ"الفلاسفة العلاجيين"، لكونهم ينظرون إلى الفلسفة على أنها ضرب من العلاج المنطقي. ويضاف إلى هؤلاء فلاسفة "مدرسة أوكسفورد" الذين أنفقوا مجهودات غير عادية في تحليل اللغة الطبيعية العادية.

وحري بنا أن نتوقف قليلا في هذا السياق، عند فلسفة "مدرسة أوكسفورد"- وتسمى أيضا "فلسفة اللغة العادية"- من حيث هي منهج لممارسة الفلسفة أحرى من أن تكون مذهبا محكوما بعقائد معينة. كما تمثل مرحلة متطورة من مراحل الفلسفة التحليلية، لذا فهي تقتسم معها أهم أهدافها وما به تميزت عن نظيراتها، وهو أن تحليل المفاهيم أجدى من بناء الأنساق الميتافيزيقية. غير أن ما شكل مركز التوتر والاختلاف بين هذه المدرسة (أوكسفورد) وباقي التيارات المحسوبة على الفلسفة التحليلية هو دراسة استعمال الكلمات في سياقها العادي غير الفلسفي. يقول جرايس (P. Grice): "إن الموقف الوحيد الذي حظي بموافقة عامة من فلاسفة اللغة العادية من وجهة نظري، هو أن الفحص الدقيق للجوانب التفصيلية في الخطاب العادي مطلوب كأساس للتفكير الفلسفي"[9].

ومعلوم أن هذه المدرسة كانت قد تأسست بجامعة أوكسفورد في أربعينيات القرن الماضي بزعامة "جون أوستين"(J.Austin , 1911-1960) و"جبرت رايل" (G . Ryle. 1900-1976) و"بتر ستراوسن"(P.F.Strawson) ولم يكن فلاسفة هذا الاتجاه على رأي واحد في كل التفاصيل، بل إنهم لم يجتمعوا إلا على الأسس العامة التي شكلت جوهر اهتماماتهم، وفي مقدمتها جعل اللغة العادية مركز البحث الفلسفي ومنطلق النظر التحليلي، مع التأكيد على أن اللغة ظاهرة اجتماعية ينبغي أن تقارب وفق خاصيتها تلك، وليس من زاوية مثالية أو ميتافيزيقية (على نحو ما كانت تفعل بعض الفلسفات التقليدية). وعلى هذا الأساس يمكن بسط قضيتين اثنتين شكلتا ركني "عقيدة" الفلاسفة التحليليين:

-القضية الأولى: إن الجانب المهم من وظيفة الفيلسوف هو تحليل الاستعمالات العادية لتعبيرات معينة ووصفها وإبراز خصائصها في حدود معقولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

-القضية الثانية: إنه من غير المقبول رفض فئة من العبارات العادية بوصفها كاذبة أو مستحيلة، أو غير صحيحة لغويا، إذا قام هذا الرفض على أسس فلسفية فحسب.

3-الفلسفة التحليلية: المعالم الكبرى:

لقد أبرزت الفقرات السابقة جانبا من ملامح الفلسفة التحليلية باعتبارها تعد الوظيفة المثلى للفيلسوف مرتبطة بتحليل اللغة، من جهة، وباعتبارها، من جهة ثانية، ترمي إلى تحليل الوقائع والقضايا إلى مكوناتها البسيطة بقصد توضيحها. وتبعا لذلك جعل الفلسفة متصفة بأكبر قدر من "العلمية". بمعنى أن يتناول الفلاسفة مسائل "يمكن حلها" بدلا من إثارة مشاكل ومعضلات فكرية كبرى "لا أمل في حلها" كمظهر من مظاهر "الواقعية" الذي يفرضه كل نظر فلسفي يجعل اللغة ، مركزه – منطلقا وغاية- ويتخذ من التحليل منهجا وهدفا، على نحو ما يتبين من الملامح الأساسية المميزة لأنموذج الفلسفة الموصوفة بالتحليلية.

3-1. الاعتداد بالقيمة القصوى للغة في الفلسفة: إن اللغة في منظور الفلاسفة التحليليين ليست فقط وسيلة للتخاطب والتواصل وإنما تشكل، أيضا، هدفا للبحث الفلسفي. ولعل هذه العناية الخاصة باللغة من قبل فلاسفة التحليل من أمثال "راسل" ومورْ" و"فتجنشتاين" حدت ببعض الباحثين إلى تعريف هنا التقليد (التوجه) الفلسفي بكونه "مدرسة فلسفية معاصرة تتخذ من دراسة اللغة موضوعا لها"[10].

إن المشكلات الفلسفية – وفق هذا التقليد- تترجم إلى حدود وقضايا لغوية، وتنقل من سياقها العام المنفتح إلى آخر خاص محدد، كمنهج إجرائي يتيح مناقشتها وحلها. فـ"مسألة الإلزام الخلقي مثلا، تقارب على أساس عبارات الأمر [والنهي]. ومسألة الكون توصف في حدود العبارات التي تدل على وجوده، وهكذا"[11]. بيد أن ما ينبغي أن يكون موضع اعتبار في هذا المقام أن هناك اختلافا حصل بين الفلاسفة التحليليين بخصوص طبيعة اللغة الجديرة بالدراسة والبحث، لذا اقتُرح أن يسعى التحليل الفلسفي إلى إيجاد "لغة اصطناعية" (صورية) (Formal language) تتأسس على "الرمز"(بالمعنى والشكل المنطقيين) لأجل ضمان التعبير الدقيق، وتجنبا للأخطاء الناجمة عن استعمال اللغة العادية؛ أي ضرورة الابتعاد عن "اللغة الجارية" التي قوامها الغموض والالتباس، (وتبعا لذلك لن تكون مسعفة في حل

المعضلات الفلسفية) وإبداع لغة "مثالية" قوامها الوضوح والشفافية، كما هو الحال في لغة المنطق والرياضيات مثلا. وقد كان "فريجه"(Frege.G) و"راسل"(Russel) و"كارناب" (Carnap) وفنتجتشتاين ممن دافعوا بشراسة عن تأسيس وتنفيذ هذا المشروع اللغوي، الذي لم يكتب له النجاح أو التحقيق، لإيغاله في المثالية من جهة، وعدم كفايته العلمية، من جهة أخرى.

ولهذه الاعتبارات لم يكن البديل الممكن إلا الانصراف إلى اللغة العادية، من حيث كونها الوسيلة المناسبة لتناول المشكلات الفلسفية، بالنظر إلى كونها أساس التخاطب اليومي بين الناس، وأداة التواصل الحي التي استخدمها البشر منذ أقدم العصور.

لقد غدت اللغة إذن، مبحثا أساسا للفلسفة ما دام العالم لا ينكشف ولا تتحدد معالمه إلا عبرها، وما دام أن خبرة الإنسان عن هذا العالم لا تظهر إلا بها. فبالعبارة يحقق المرء تناسق تفكيره وتوازن ذاته، كما يعرض عالمه الداخلي أمام نفسه وأمام الآخرين، مثلما يكشف أيضا، عن مستوى تفاعله مع الكون المحيط به، ومدى إدراكه له.

إلا أن ما ينبغي أن يدخل في حيز الاعتبار من هذه الجهة أن الفلسفة التحليلية لا تتوخى فقط تناول القضايا والألفاظ في صورتها الشائعة أو المتعالية، لأنه "لو صح هذا الادعاء لكانت الفلسفة على أفضل وجه مساعدة زهيدة لواضعي قواميس اللغة، أو على أسوأ وجه تسلية قوم كسالى حول مائدة الشاي"[12]، فيما يرى "برتراند راسل".

3-2. المعالجة الذرية للإشكالات الفلسفية. إن كلمة "الذرية" كلمة مجازية بالطبع، فمثلما يفترض في العالم الباحث أن يستطيع الاستمرار في تقسيم الأشياء حتى يصل إلى جزئياتها النهائية غير القابلة للتقسيم؛ كذلك كان تصور وظيفة الفيلسوف على أنها نوع من تحليل الفكرة أو الإشكالية إلى عناصرهما النهائية البسيطة من منطلق أن الأفكار والقضايا المركبة جني مبنية على نظيرات لها بسيطة. ومعنى هذا أن تجزيء أي إشكال فلسفي أو قضية – في نظر التحليليين – إلى عناصرها المكونة لها يؤدي إلى تحقيق مطلب الدقة والفهم الجيديْن، لأن المعرفة بالمسائل الصغيرة توفر للباحث فرصة إدراك الأجزاء ومن بعد ذلك فهم المركب الكلي.

لهذا وذاك يبدأ الفيلسوف التحليلي من موضوع المشكلة كالإنسان أو الطبيعة أو اللغة مثلا، ثم يرده إلى وحداته الأولية التي يتركب منها والتي لا يمكن بدورها أن تفكك إلى ما هو أبسط منها"[13]. كل ذلك موجه بقصد الوقوف على علة الغموض وسبب التعقيد وطبيعة الالتباس. يقول "بيرس" (D.F.Pears) مفسرا منهج "الاشتغال الذري" عند التحليليين: "فأنت تبدأ بعبارات، تحللها، ثم تجد أنها

مكونة من أجزاء، بعض هذه الأجزاء تسمى موضوعات في العالم. ومن الواضح أن الرابطة وأداة الربط لا تسمى موضوعا أو تشير إلى موضوع. إلا أن الكثير من الكلمات الأخرى تقوم بذلك. والموضوعات نوعان؛ هناك أولا الأشياء الجزئية، وهناك ثانيا، الصفات والعلاقات؛ وهي موضوعات عامة. علينا إذن أن نتصور العالم على أنه مجموعة من الأشياء القابلة للتقسيم، ومن الصفات والعلاقات، التي هي جزئيات على نحو ما، وتبرير هذه الصورة هو أنك لو لم تعرف كيف تكون هذه الجزئيات لما فهمت العبارات التي تظهر فيها أسماء هذه الجزئيات. وهذه الجزئيات يمكن فصلها الواحدة عن الأخرى، إذ إنك إن لم تعرف بعضها منفصلا عن بعض لم تستطع معرفة أي منها مطلقا. ولكان الأمر مثل لعبة مزعجة تعطى فيها كومة من القطع الصغيرة من العاج وعليك أن تفصل قطعة واحدة من الكومة دون تحريك غيرها من القطع إلا أنها مثنية ومتداخلة بحيث يكاد يستحيل ذلك"[14].

ورغم أهمية هذا المترع التحليلي إلا أنه أثار انتقادات عديدة ترتبط تحديدا بجانب المبالغة فيه ليغدو هدفا في حد ذاته وليس وسيلة تحقق مطلب اليسر والبساطة والتعامل مع الإشكالات الفلسفية والقضايا المعقدة. ذلك أن من شأن الإغراق في التقسيم والتجزيء أن يؤدي إلى التحريف والتشويه للقضية الأساس محل الإشكال. لذا لا يبعد أن يُتصور أن عملية التحليل والتفكيك الذري للإشكالات تنطوي على تغليط وتغيير، على اعتبار أن تحليل كل معطى متماسك من شأنه أن يدخل إليه الخطأ، وتبعا لذلك لا تأتي نتائج التحليل صحيحة، هذا من جانب، ومن جانب آخر، لا يُؤمَن أن يبتعد الفيلسوف، وهو في غمار التعامل مع الجزئيات، عن المسألة الأساسية ومرتكز الإشكال. الأمر الذي من شأنه أن يجعل من الفلسفة التحليلية، بما هي فلسفة علاجية ومنهجية،"فلسفة تخيلية إبداعية" –على حد تعبير "ستراوسن". وهذا موضوع آخر نناقشه في حينه.

3-3- العناية بالجانب العلمي المدعوم بالبرهان والمنطق: إن المنهج العلمي ليس مقصورا فقط على "العلوم" (بالمعنى الدقيق، أي العلوم البحتة المضبوطة) وإنما يمتد كذلك إلى الفلسفة. ولا خلاف في أن الأبحاث الفلسفية يجب أن تكون على قدر من الإتقان المنهجي. بل يتعين أن يكون تحديد المنهج تحديدا واضحا، مطلبا أساسا في البحث الفلسفي. لذا نجد رائد الفلسفة البراغماتية "بورس"(Peirce. C.S) يؤكد أن "الفلسفة الممتعة حقا هي تلك التي تستعمل المناهج الأكثر دقة وعقلانية".

إن الفلسفة التحليلية – وفق هذا المنظور- تقر بأن المعرفة بالأشياء الخارجية، كما بالذات الإنسانية، ممكنة على شرط أن تكون مؤسسة على معرفة الإنسان ومجال العلوم التجريبية والعقلية الأخرى، ولا تناقضها. وفي حال ما إذا حدث أي تعارض أو تناقض يحتم على الفلسفة تغيير نظرتها

وتوجهاتها بما يتلاءم مع النظرة العلمية السائدة. وبناء على هذا، تكون الفلسفة على الدوام متغيرة ومتجددة ومواكبة للمعارف والنظريات الموصولة بباقي العلوم؛ وهو الأمر الذي يبرز التوجه الانفتاحي لهذا التيار الفلسفي و"واقعيته الإبتسيمولوجية" كخصيصتين إضافيتين مميزتين له أكثر مما سواه، سواء على المستوى النظري التجريدي أو على الصعيد العلمي الإدراكي، ومن ثمة صعوبة التصنيف. فالفلسفة التحليلية أخذت من الفلسفة (بمعناها العام) الطابع التجريدي الموغل في التجريد والصورنة، كما أخذت من "العلم" طابع التحقق والتدقيق والفحص العميق للقضايا والإشكالات المتناولة.

لقد توخى التقليد الفلسفي التحليلي تأسيس المعرفة الإنسانية على مرتكزات بعيدة ما أمكن عن اللبس والغموض، وذلك بنقل تلك المعرفة من نطاق الحدس والإيمان القائم على التسليم العفوي إلى نطاق العقل المنطقي الذي لا يقبل إلا بما يجوزه المنطق والبرهان، أو الخبرة التجريبية العلمية التي يمكن التحقق من صدق قضاياها بالمشاهدة والعودة إلى الواقع المادي وشروطه[15].

وللإشارة، فإن هذا التيار الفلسفي–المتميز في توجهاته وطروحاته– لم يأت من فراغ وإنما استنادا إلى أفكار وتحليلات سابقة. فقد اعترف "راسل"(Russel.B) وصديقه "جورج مور"(G : Moore) بأن "دايفيد هيوم" (David Hume) قد سبقهما إلى وضع الأسس الرئيسية لهذا التوجه التحليلي ضمن الفلسفة المعاصرة. ففي حيز اعتقاد "هيوم" أن هموم الفلاسفة الذين سبقوه هي هموم في غير محلها. فأكثر الفلاسفة– في نظره — اعتبروا أن باستطاعتهم معرفة العالم الخارجي، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستدلال على ذلك استدلالا مبنيا على المعرفة اليقينية. لذا دعاهم –على سبيل التحدي– إلى أن يفسروا كيفية حصول الإنسان على تلك المعرفة، ليضع بعد ذلك معيارا لما عده معرفة. فقسم الأشياء التي تصل إلى العقل قسمين؛ الأول أسماه "انطباعات" والآخر أفكارا، كما صنف المعرفة صنفين معرفة يقينية قبلية ومعرفة حسية[16]، واضعا بذلك اللبنات الأولى للفكر الفلسفي التحليلي الذي طوره إلى أبعد مدى زمرة من أقطاب هذا التوجه كما تبين في فقرات سابقة.

3-4- استحضار البعد "التداولي" في التحليل اللغوي: تؤسس الفلسفة التحليلية بحوثها على تحليلات مختلفة تنبني على اللغة، هادفة إلى الارتباط بها على نحو موضوعي في مقابل ابتعادها–ما أمكن– عن المعرفة والخبرة الشخصيتين الفرديتين وكذا عن اللغة الخاصة بفرد ما. كل ذلك احترازا من الوقوع في التناقض من جانب، وحرصا على أقصى درجات الوضوح من جانب آخر. ذلك أنه لو اقترنت المعرفة بشخص ما أو بالخبرة الفردية فإنها لا تعدو أن تكون واضحة بالنسبة للعارفين بها فقط لا غير. ولعل هذا ما يفضي بالتحليلات التي لا تقرر فيها الألفاظ بشكل واضح ومؤسس إلى أن تكون

عديمة الجدوى، غير ذات قيمة بالنسبة لأي معرفة فلسفية تصبو إلى أن تكون على قدر معتبر من الاتساق والانسجام[17].

وتبعا لهذا وذاك فإن"التحليل الذي لا يرتبط باللغة المشتركة بين الذوات لابد أن يكون – على أفضل الفروض- واقعا في التناقضات، وقد يكون – على أسوأ الفروض – عديم النفع بالنسبة للعملية الفعلية للتحليل[18].

ولعل ما يعكس هذا النزوع إلى العناية بالبعد التواصلي التذاوتي للغة الطبيعية هو تلكم النقلة التي حصلت في فلسفة فتجنشتاين من أطروحة "الرسالة المنطقية" إلى أطروحة "الأبحاث الفلسفية" على سبيل ما يسمى بـــ"الانعطاف اللغوي التداولي".

فمعلوم أن صاحب "الرسالة" دافع باستماتة - خلال المرحلة الأولى- عن وجود لغة منطقية كلية تؤول إليها كل اللغات، بما فيها اللغة العادية، معتبرا أنه إذا كان القاسم المشترك بين اللغة والعالم هو "الصورة المنطقية" فإن قضايا المنطق وحدها هي التي من شأنها أن تكشف عن هذه الصورة. وهذا ما جعل فتجنشتاين يزدري اللغات الطبيعية لكونها ذات "نحو" موهم (من الوهم) يبعث على الخطأ وسوء الفهم؛ خلاف ما عليه الأمر في اللغة المنطقية الاصطناعية التي تعكس الواقع كما هو على نحو نزيه وشفاف. لذا ف"النحو" من هذه الجهة إخفاء وتعتيم وتضليل، فيما "المنطق" إظهار وكشف وبيان.[19]

إن هذا الموقف الذي ألح عليه فتجنشتاين كثيرا في "الرسالة" يجعل من انقلابه الجذري على نفسه، وتخليه عن "أسطورة" اللغة المثالية لصالح البحث في "نحو" التواصل القائم على اللغة الطبيعية، أمر غير عادي. فقد تراجع بشكل كلي عن الأطروحة التي وجهت إنجاز "الرسالة"؛ فكرة "الصورة المنطقية" التي تجعل القضية ذات معنى. كما تخلى عن تلك الرمزية المنطقية وعاد ليبين "أنه بقدر ما يكون فحص اللغة العادية دقيقا تكون فكرة اللغة المثالية متناقضة"[20]، ذاهبا –في الآن نفسه- إلى أن هذه عينها (فكرة اللغة المثالية) نموذج للمشكلات الفلسفية الزائفة الناتجة عن الاستعمال السيء للغة. وبهذا يكون قد أعاد الاعتبار إلى ما استبعده في فلسفته الأولى، بحيث أضحى يؤكد أن معنى ما نقوله يتحدد بسياق استعمالنا للأدوات اللغوية (إن المعنى هو الاستعمال، كما يقول)، وهي استعمالات غاية في الكثرة والتنوع لحد يستحيل اختزالها في نموذج واحد. ونتيجة لذلك يبرز مفهوم جديد في فلسفة فتجنشتاين هو مفهوم "صورة الحياة"[21].

وبهذا المنظور تصير اللغة أمرا تحدده الإنجازات التواصلية "ضمن جماعة بشرية ما، يتقاسم أعضاؤها كما هائلا من الممارسات المشتركة، ويغدو استعمال الرموز- على هذا الأساس- مقرونا بالاستجابة لتوقعات السلوك وبالإجماع التحتي الذي يحكم تحقق هذه التوقعات. وتكون اللغة بذلك شأنا عموميا وليس أمرا خصوصيا"[22]، كما تبرهن على ذلك "حجة اللغة الخصوصية" من جانب، و"حجة عمومية اتّباع القاعدة" من جانب آخر.

ففي اعتقاد فتجنشتاين تتشكل "القاعدة"، من خلال استعمالها، من قبل جماعة إنسانية محددة، لذا تكون –منطلقا وغاية- مفهوما مرتبطا بالجماعة وليس بالفرد. يقول في هذا السياق:"هل ما نسميه اتّباع القاعدة شيء يمكن أن يقوم به شخص واحد، ويقوم به مرة واحدة في العمر؟..لا يمكن أن يكون المرء قد اتبع قاعدة مرة واحدة فقط، لا يمكن أن يكون الأمر –مثلا- صدر وفهم مرة واحدة، أو أن المحادثة أجريت مرة واحدة. إن اتّباع القاعدة أو إجراء المحادثة أو لعب جولة للشطرنج تعد عادات (استعمالات، مؤسسات)"[23] . ومؤدى هذا التصور أنه مثلما يتعذر الحديث عن الالتزام ب"القواعد" على نحو خصوصي مقطوع الصلة بالجماعة، فكذلك الأمر بالنسبة إلى مسألة "اللغة الخصوصية" إذ يستحيل تحقق فهم خاص للرموز، على اعتبار أن الفهم لا يصير ممكنا متيسرا إلا ضمن مقاييس عمومية للفحص والتحقق. لذا فمن غير المقبول- حسب اعتقاد صاحب الأبحاث- وجود تفسيرات للمعنى لا تستند إلى "نحو عمومي". ومن هنا فإنه لا يمكن للمرء الفرد أن يتمثل قاعدة ويجعل فكره صالحا في نطاق لغة خصوصية لأن الفكر مبدئيا شأن عمومي.[24] وإذا تبين هذا تبين معه كذلك الارتباط المتين بين "حجة اللغة الخصوصية" و"حجة عمومية اتّباع القاعدة"، بما هما مبرهنتان على مدى الحضور غير العادي للبعد التداولي التفاعلي في البحث اللغوي عند فتجنشتاين خاصة، وفي الفلسفة التحليلية على جهة العموم.

4- خاتمة:

استنادا إلى ما سبق، يبدو أن ما تتميز به الفلسفة التحليلية عن غيرها من التوجهات الفلسفية الأخرى هو قناعتها بأن التحليل الفلسفي للغة يؤدى إلى تفسير معقول للفكر، وأن هذا التحليل الفلسفي هو السبيل الوحيد للوصول إلى تفسير شامل ومتناسق. وتبعا لهذا مثل التوجه طريقة "ثورية" في الممارسة الفلسفية الحديثة بما قام به من "تحويل" لموضوع الفلسفة مما كان عليه إلى موضوع خاص باللغة. وشكل –إلى جانب الوضعية الجديدة- النموذج المهيمن على "المنعطف اللغوي" في القرن العشرين؛ لكونه حصر الفلسفة في مهمة التحليل اللغوي وأعطى الأولوية للغة على الفكر بما جعل كل

ذلك واقعا فلسفيا قائما بذاته. إنه "تقليد" فلسفي يجمع بين النظرية والتطبيق، بين المنهج والفلسفة، بين الكلمات والأشياء، بين اللغة والواقع، مع رغبة ملحة في التحليل والتفكيك.

[1] هايدجر، مارتن. التقنية، الوجود، الحقيقة. ترجمة : محمد سبيلا وعبد الفتاح هادي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.1995.ص:113

[2] الموسوعة الفلسفية، من إنجاز لجنة من الأكاديميين السوفيات بإشراف روزنتال ويودين. ترجمة، سمير كرم .مراجعة صادق جلال العظم وجورج طرابيشي. دار الطليعةة. بيروت ط. 5. 1985. ص: 22.

[3] الموسوعة الفلسفية المختصرة. ترجمة فؤاد كامل وآخرين. مكتبة النهضة. بغداد. ص: 153.

[4] Rossi ; Jean. Gerard ; la philosophie Analytique. PUF .1993. P : 3.

[5] رشوان محمد مهران، دراسات في فلسفة اللغة، دار قباء، الكويت، 1998. ص:25.

[6] فيصل غازي مجهول، تحليل اللغة في رسالة فتجنشتاين المنطقية الفلسفية. دار الكتب لعلمية. بيروت 2009. ص: 16.

[7] ياسين خليل. مقدمة في الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية. ط1 ، 1970. ص:10.

[8] بوخنسكي. تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا. ترجمة محمد عبد الكريم وافي. مؤسسة الفرجاني. ليبيا. ص: 115.

[9] Paul Grice , « Reply to Richards », in R.E. Grandy and R. Warner (eds), Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, ends; oxford: Clarendon Press, 1986. P: 51

[10] صلاح إسماعيل. نظرية المعنى في فلسفة بول كرايس. دار قباء الحديثة، مصر، القاهرة، 2007. ص: 18-19.

[11] Rossi Jean-Gerard, La phylosophie analytique , P : 3.

[12] مهران محمد. فلسفة برتراند راسل. دار المعارف. القاهرة ط: 2. 1979. ص: 15.

[13] بشير خلفي. الفلسفة وقضايا اللغة: قراءة في التصور التحليلي. منشورات الاختلاف. ط: 1 ؛ 2010. ص: 62.

[14] نفسه ص: 63.

[15] ألفريد جواز أيار. ثورة البحث عن المعنى: مقالات في فلسفة القرن العشرين. ترجمة فاتنة حمدي. دار الحكمة. لندن .2008. ص: 58.

[16] بشير خلفي. الفلسفة وقضايا اللغة (مرج سابق) ص: 64.

[17] إبراهيم يوسف النجار."الفلسفة التحليلية من هيوم إلى راسل". مجلة الفكر العربي المعاصر. ع:63, 1991. ص: 62.

[18] رشوان محمد مهران. دراسات في فلسفة اللغة. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت. 1998. ص: 23.

[19] للتوسع ينظر، اللغة والمعنى: مقاربات في فلسفة اللغة. مجموعة من الباحثين. الدار العربية للعلوم ناشرون. 2010. ص: 177 وما بعدها.

[20] Auraux Sylvain.la philosophie du langage.PUF.1996. p.243

[21] الرجع نفسه.ص: 183

[22] مصطفى الحداد. اللغة والفكر وفلسفة الذهن. منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية لكلية الآداب بتطوان. 1995. ص:96

[23] نفسه. ص:98

[24] المرجع السابق .ص:103